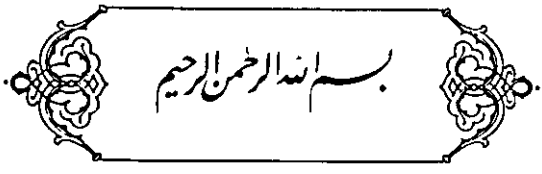

المقـدمة

الحمد لله الذي بعث رسوله مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه والتابعين له إلى يوم الدين.

أما بعد:

إن السيرة النبوية العطرة هي منبع يشرب منه المسلمون ماءً عذباً زلالاً مهما تقادم الزمان، إنها المنهاج العملي والترجمة الضافية، وهي النموذج المثالي الذي ينبغي على المسلمين أن يحتذوه، ويستضيئوا بضيائه في كل زمان ومكان، للوقوف على الجوانب العملية التي تم تطبيقها في حياة رسول الله ﷺ، ونحن اليوم بحاجة ماسة إلى تطبيق عملي للإسلام بعدما أصاب حياتنا ومفاهيمنا وتصوراتنا ما أصابها.

إن السيرة النبوية دروس بليغة تشمل الجوانب المختلفة للحياة الإنسانية، منها الجوانب الدعوية، والخلقية، والآداب العامة، والسياسة الحربية وقيادة الجيوش، والمال والاقتصاد، والقضايا الاجتماعية المتنوعة، وطريقة التعليم، وغير ذلك.

إنها سجل حافل بجلائل الأعمال يستحق الوقوف عنده والتأمل فيه

للعبرة والاستفادة في حياتنا اليومية، إن كل حدث فيها درس توجيهي للأمة، وإن الهجرة إلى الحبشة جزء من السيرة النبوية الشريفة.

إن سبب تأليف هذا الكتاب يعود إلى أسباب عدة:

أ ــ إن خدمة هذا الفن شرف عظيم، فهذه محاولة متواضعة من جانبي لخدمة فصل من فصول السيرة وأرجو من الله القبول، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله أسأل الغفران.

ب ــ إنني أعتقد أن الهجرة إلى الحبشة لم تنل العناية الكافية التي تستحقها من الكتّاب والباحثين كحدث مستقل بعض الاستقلال، وإن الذين تناولوها ضمن كتابة السيرة فإنهم مروا بها مروراً سريعاً، وقلما يقفون عندها متأملين، لأن الهجرة إلى الحبشة لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من مجموع قضايا السيرة وأحداثها كما أن جزئياتها متفرقة ومتناثرة في كتب السيرة وأبوابها، فأحببت أن ألفت النظر إلى دراسة الموضوع من قبل العلماء والباحثين لاستخراج الدرر الكامنة في أعماق هذه الهجرة.

جـ ــ إن من بين الأسباب دفاعاً عن السيرة النبوية. لأن السيرة كما نعلم تتعرض دوماً لهجمة شرسة من قبل أعداء الإسلام، وبطبيعة الحال فإن الهجرة إلى الحبشة وما نتج عنها قد تعرضت للتشويه والطعن، حيث حاول البعض قلب الحقائق رأساً على عقب، وأنكروا حقائقها الثابتة بدون سند يمكن الاعتماد عليه، فالأحقاد الدفينة والكراهية العميقة تتفجر في مثل هذه الساحات وتتجاوز كل الحدود المعقولة والمتصورة، إن حادثة إسلام النجاشي وبعض أهل الحبشة الآخرين في وقت مبكر كهذا لا يعجب النصارى. ولا الذين يحاربون الإسلام في المنطقة التي نحن بصددها، فالإنكار هي الوسيلة الفعالة لإلقاء الشبهات وتشويش الناشئة الإسلامية. أليس مثل هذه الشبهات جديرة بالرد عليها؟!!

د ــ إن تاريخ الإسلام في أفريقيا الشرقية لم يدرس كما ينبغي في تصوري. وما دام مفتاح هذا التاريخ هو الهجرة المباركة إلى الحبشة فإنني وجدت في نفسي رغبة في دراسة الهجرة وتتبع آثارها لعلها تقودنا إلى دراسة

أشمل وأوسع لكشف ما خفي من تاريخ تلك المنطقة التي ازدهرت يوماً ما حضارة إسلامية عريقة ملكت ناصية الحكم والتوجيه فترة طويلة.

إن الوضع الحالي لمسلمي أفريقيا عامة والقرن الأفريقي خاصة يجعلنا نحزن بسبب تردي أوضاع المسلمين. ومثل هذا حري بتذكير هؤلاء المسلمين تاريخهم المجيد وإحياء هذا التاريخ المطموس.

إن الهجرة الأولى تجسيد للوحدة الإسلامية، والأخوة الإسلامية التي لم تعرف الحدود الضيقة، وتجسيد للتضحية الكبيرة التي ينبغي أن يتحملها المسلمون عند الشدائد، وتجسيد للتلاحم والتعاون.

إن الشعوب التي نبتت من شجرة الهجرة المباركة أحوج ما تكون اليوم إلى تلك المعاني الرفيعة الورادة فيها حتى تتخطى الظروف المحيطة بها، وتبني كيانها على أساس من دينها وحضارتها الإسلامية.

إن ما ذكرته من الأسباب هي التي حملتني على جمع هذه المادة وتأليف هذا الكتاب لهدف أخذ الدروس من وقائع هذه الهجرة التي تشكل جانباً من السيرة النبوية التي هي بحر زاخر بالنفائس والجواهر.

هذا والله أسأل جلّ شأنه أن يلهمني الصواب والرشاد في عملي هذا، وأن يبعدني الزلل والهوى فيما أنا فيه، وأن يجعل عملي كله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع بالمسلمين إنه جوّاد كريم لطيف بعباده وهو على كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبي الهدى محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه البررة الكرام ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

د. علي الشيخ أحمد بكر
عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية

obeikandl.com

معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة

التمهيد:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المتقين وصاحب الحوض المورود سيدنا محمد بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه الطاهرين والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

إن الصراع بين الحق والباطل أبدي مستمر في هذه الحياة دَائِم بلا انقطاع، فالخير بجانب الشر، وإن دوافع الخير موجودة في الكائن البشري مركوزة في أعماق نفسه يسعد بفعله ويرقى بسببه إلى أعلى الدرجات، فكذلك الشر ودوافعه، فإن لدى الإنسان قابلية لفعل الشرور والتدمير فهما طريقان للسلوك، طريق يؤدي إلى السعادة في الدارين، وآخر يسوق لسالكه إلى نتيجة لا تسر، إلى الشقاء الأبدي في الدارين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

فلقد أودع الله سبحانه وتعالى في النفس البشرية ذلك الميل إلى الخير وإلى الشر فيحصل من ذلك اختلاف في الرغبات وصراع بين بني البشر أفراداً

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٧ ـ ١٠.

وجماعات مما يؤدي إلى التخاصم والتقاتل، بين الأخيار والأشرار كل يحاول أن يحقق ما يصبو إليه.

ويستخدم كل الوسائل التي يعتقد أنها تحسم القضية لصالحه وتلك طبيعة البشر، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

فالباطل يقاوم الحق ويدافع عن نفسه بكل الأسلحة المتاحة له، وأهل الباطل يخططون وينظمون أنفسهم استعداداً لمواجهة أهل الحق وتدميرهم مهما كلف ذلك من نفس ومال ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2].

ولقد روى التاريخ أحداثاً مؤلمة تقشعر منها الأبدان، ويندي لها الجبين وفي القرآن الكريم بعض الصور التي تكشف لنا جانباً من مشاهد مخزية وجرائم يرتكبها أهل الباطل والأهواء حيث كشف لنا عالم الغيب مواقف مزرية لهؤلاء وقفوها دفاعاً عن باطلهم، وحماية لمعتقداتهم الجاهلية البعيدة عن العقل، بل هي مناقضة له تماماً محاولة منهم لسحق الإيمان ومحو آثاره من القلوب عن طريق البطش والتنكيل لا عن طريق الإقناع والحجة، وتلك طبيعة أهل الأهواء والطغيان في كل عصر وفي كل وقت تجد الجاهلية فرصة لِلْبَطْش بالمؤمنين فلا يترددون لحظة للجوء إلى القوة لكي يسكتوا الناس بالتخويف والترهيب. ولقد قص علينا القرآن الكريم واحدة من القصص المعبرة عن مشهد مخيف يستخدم الطغاة أبشع وسيلة للتنكيل، ألا وهي النار الموقدة في الأخدود. يقول الله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٣) سورة البروج: الآيات ١ ـ ٩.

ورغم أن هذا الطاغية الجبار لم يكن عنده أي مبرر معقول لارتكاب ذلك الجرم إلا أنه تمادى في غيه وأوقد ناراً فأحرق المؤمنين الذين ساقهم الملك الطاغية إلى الميدان لمشاهدة قتل الغلام، وبنصيحة من الغلام المؤمن الذي عجز عن قتله الملك وأعيته السبل لتنفيذ الجرم، وعندها قدم الغلام رأياً للملك أدى إلى حشد الناس في الميدان العام، واتبع الملك رأي الغلام لقتله فعندما سمع الناس قول الملك وهو يرمي السهم تجاه الغلام وهو يقول باسم الله رب الغلام آمن الناس برب الغلام فعندها أوقد ناراً عظيمة فأحرقهم جميعاً كما ورد في الحديث النبوي[1] ورغم ما أظهره الله من كرامة واضحة أمامه وما أجرى الله على يد الغلام إلا أن كل ذلك لم يعده إلى الصواب بل ارتكب جريمة وحشية مسجلة في القرآن الكريم عبرة لمن يعتبر.

وما أكثر القصص القرآنية التي تصور جانباً من الصراع العميق بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر لتكون لنا عبرة في مسيرة الحياة الشاقة المليئة بالابتلاءات العظيمة والمثبطات المتنوعة.

انظر إلى نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يواجه قومه بالحجة والمنطق ويحاول هدايتهم، ويسلك كل السبل والدروب المختلفة لتحقيق هذا الهدف النبيل والغاية المثلى، ويستعمل التورية ويختار ألفاظه بعناية بالغة ويضرب الأمثلة الحية لكشف ضعف الأصنام حيث لا تضر ولا تنفع وأنها جمادات لا تنفع نفسها ولا تضر، وفي الجانب الآخر ترى عجباً، قوماً من المشركين يعادون الرسول عليه السلام ويغمضون أعينهم عن رؤية الحق، ويصمون آذانهم عن سماع الحجج القارعة، ولا يكتفون بذلك، بل يكيدون ويتأمرون لسحق الإيمان وجنده، ويلجئون إلى أخس وسائل التعذيب، لوضع نهاية سريعة للمعركة الدائرة بين الطرفين ولضمان الانتصار والغلبة بأقل

---

(١) انظر صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ٤/٢٢٩٩ ـ ٢٣٠١، ص ٧٣.

الوسائل خسارة بالنسبة إليهم ألا وهي الحرق بالنار، بعد أن لم يجدوا وسيلة أخرى لأبطال الحق ودحره أو قدرة لتفنيد الحجج التي يقدمها إليهم إبراهيم عليه السلام.

ففي سورة الأنبياء نجد تفصيلاً عجيباً ومشهداً من ذلك الصراع بدأ بالدعوة إلى الله في المراحل الأولى وانتهاءً بإلقائه في النار، ولكن قدرة الله القادر الفعال لما يريد هي التي حالت بين النار وحرقها وبين نبي الله إبراهيم عليه السلام حتى أصبحت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

هذا طرف من الحوار، نبي الله إبراهيم عليه السلام يحاول إخراج قومه من الظلمات إلى النور وقومه يحاولون التشبث بالتقاليد البالية والعادات التي تحولت إلى نوع من العبادة الباطلة يدعون بأنها تقربهم إلى الله زلفى.

ومع أن نبي الله إبراهيم عليه السلام ضرب أروع الأمثلة بكسر الأصنام إلا واحداً ثم المناقشة الملفتة للنظر حتى أدركوا خطأهم ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ومع كل هذا لم يثبتوا على الحق الذي ظهر لهم، بل انقلبوا على أعقابهم متذرعين بالمنطق السقيم والحجج الواهية، متجاهلين عن الحقائق الواضحة، يقول الرب جل وعلا: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٥٦.

وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1]. فكان جوابهم مخالفاً للمنطق والأدلة القاطعة القولية منها والفعلية الناطقة بأن الأصنام لا تنفع ولا تضر وراحوا يهتفون بلغة نابعة عن الجحود والنكران والإعراض عن الحق المبين ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[2]. لكن قدرة الله سبحانه وتعالى حالت بين النار الحارقة وبين نبي الله إبراهيم عليه السلام فبطل كيدهم ورجعوا بخذلان وخسارة ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾[3].

وتلك سنة ماضية، صراع أبدي بين الإيمان والكفر، ابتلاء وتمحيصاً للمؤمنين في كل عصر وفي كل مكان في هذه الأرض يرتفع فيها صوت الحق.

فالأمة الإسلامية لم تشذ عن تلك السنة الإلهية في مبدء أمرها أو في حياتها الطويلة بل تعرضت لما تعرضت له الأمم السابقة من استهزاء وسخرية وتعذيب وتشديد ثم التصفية الجسدية، فالذين آمنوا بالله ورسوله في مكة المكرمة من المهاجرين الأولين ذاقوا مرارة التعذيب والتنكيل من قبل المشركين، وكانوا بذلك حلقة من حلقات ذلك الصراع الذي دار بين المؤمنين بأنبياء الله ورسله وبين المترفين المستكبرين الذين يريدون علواً في الأرض وفساداً. فالله سبحانه يبتلي المؤمنين ويمتحنهم إذ يقول جل جلاله: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾. ويقول الله عز وجل: ﴿ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾[4]. فهذه الفتن والابتلاءات العظيمة التي تصيب المؤمنين كثيرة ومتنوعة، فتكون تارة بالتعذيب أو القتل، وتارة بالخوف وعدم

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥٦ ـ ٦٧.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٨.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.
(٤) سورة العنكبوت: الآيات ١، ٢، ٣.

الأمن، ويمكن أن تكون بالمرض واعتلال الصحة، كما تكون بنقص الأموال والأنفس والثمرات وغير ذلك مما يشاء الله تعالى.

فالمطلوب من المؤمن أن يواجه المصائب المتجددة بقلب صبور ونفس راضية وتسليم الأمر لله سبحانه وتعالى بعيداً عن الجزع والحزن والحسرة التي لا تحل له مشكلة بل هي المشكلة بعينها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

فالهجرة التي نحن بصدد الحديث عنها ليست فريدة في تاريخ الدعوات بل هي حلقة واحدة من تلك السلسلة الطويلة التي ينتظم عقد الهجرات الخيرة، فكلما ضاقت الأرض بما رحبت على طائفة من المؤمنين لجئوا إلى الهجرة كوسيلة من وسائل المقاومة الفعالة للطغيان حتى يأذن الله بحدوث الفرج عن الكربة ويجعل لهم مخرجاً مما هم فيه إنها تعبير قوي لإعلان رفض الذل والمهانة.

ولقد قرّر هؤلاء المهاجرون أن يفارقوا الديار والأهالي دفاعاً عن العقيدة لأنها أغلى ما يملكها الإنسان، ليعبدوا الله حق عبادته ولا يشركوا به شيئاً.

ولهذه الهجرة أسباب كثيرة نرتبها حسب الأهمية في الفقرات الآتية من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.